مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 13، عدد رقم: 01، مارس 2024، صص: 235- 248

تاريخ الاستلام(2023/01/05)تاريخ القبول (2024/03/27)تاريخ النشر (2024/03/30)

سيكولوجية صراع الذات في شعر أبي العلاء المعري

The Self-conflict Psychology in Abi Al-Alaa Al-Maari's Poetry

محمد سرير
جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)، serir.mohamed2011@gmail.com

ملخص:

قد حوى الشعر العربي الكثير من المفاهيم والأفكار والصور التي عبرت عن الفكر الإنساني وحاولت فهم تحولاته وتغيراته، ومن أبرز أعلام الشعر العربي نجد الشاعر العباسي أبا العلاء المعري، الذي شهد له النقاد بمقدرته اللغوية وفكره الثاقب، وقد خلّف لنا موروثا أدبيا ضمنه جلّ آرائه الفلسفية ونطرته للحياة وفق ما تكون له ثقافة، لذلك كان هدف المقال إظهار زاوية من فكره، والتركيز على تيمة الصراع في شعره ومحاولة تتبع مدلولاته، لتكون إشكالية البحث ما حقيقة الصراع مع الذات في شعر أبي العلاء، لنخلص إلى أن الصراع ظاهرة فكرية إنسانية تحدد العلاقة بين الفرد والمجتمع.

كلمات مفتاحية: صراع؛ ذات؛ شعر؛ أبو العلاء المعري؛ مجتمع؛ أخلاق؛ دين.

Abstract:

Arabic poetry has encompassed numerous concepts, ideas, and images that express human thought and attempt to comprehend its transformations and changes. Among the prominent figures of Arabic poetry, we find the Abbasid poet Abu Al-Ala Al-Ma'arri, who was praised by critics for his linguistic ability and keen intellect. He left behind a literary legacy that includes his philosophical opinions and his perspective on life based on his acquired culture. Therefore, the aim of this article is to shed light on a facet of his thought and focus on the theme of self-conflict

المؤلف المرسل: محمد سرير، **الإيميل:** serir.mohamed2011@gmail.com

in his poetry, attempting to trace its connotations. The research problem can be summarized as: What is the nature of the self-conflict in the poetry of Abu Al-Ala Al-Ma'arri? Ultimately, we conclude that self-conflict is a human intellectual phenomenon that defines the relationship between the individual and society.
Keywords: Conflict, Self, Poetry, Abu Al-Ala Al-Ma'arri, Society, Ethics, Religion

1. مقدمة:

إن حياة الشاعر أبي العلاء المعري، قد أبدت مظاهر متعددة للحياة الإنسانية، حيث رسمت لنا الحياة على اختلاف أشكالها، من حب لها ولعلمها ولمجتمعها، وما يحيط بها من قوّة في حب الأقارب والإخوة. وما وطئته قدماه من مجالس العلم في مختلف الأمصار، وما رن بأذنيه من أدب وعلم ومحاورات اجتماعية، ودينية، ووجد فلسفي، كان له وقع كبير في نفسيته، حتى غاص بأحاسيسه وأفكاره إلى كنه هذه الحياة. فما رآها إلا شعاعاً رهيباً وموتا مرغوبا، وسعادة مستحيلة، فنجم عن كل هذا رفض لها، وإطراح شديد دون تخمين بعودة، رفض هذه الحياة بكل أشكالها. وما احتوت عليه من مجتمع وأخلاق وسياسة ودين، لدخول الفساد إلى أعماقها، والنفاق كساؤها، والمكر مظهرها، ونجد هذه الروافض تتجلى واضحة في خطابه بلزومياته، لنثير الإشكالية التالية: ما حقيقة الرفض في شعر أبي العلاء المعري؟ كما نحاول المقارنة بين حياته الشخصية وأدبه الشعري، لنتبين حقيقة الخطاب الشعري، هادفين بذلك إلى تتبع التعبير اللغوي ودلالته في توضيح مستويات الرفض، مع إظهار فكر وفلسفة أبي العلاء التي حددت نظرته للحياة.

واعتمدنا في هذا البحث على المنهجين النفسي والاجتماعي لنميط اللثام عن الدلالات النفسية للخطاب الشعري ونتبين علاقة التأثير والتأثر بين الشاعر ومجتمعه.

2.الصراع النفسي:

يتأرجح الشاعر بين حب الحياة والبعد عنها، فهو قد جرب البحث عن الشهرة وبلوغ المراتب العليا بين أقرانه، لكنه لم يوفق، لذا نراه انحاز إلى العقل الذي ساقه إلى الإقلال من الملذات والزهد في الحياة، يقول أبو العلاء: «مالي ولنفسي لقد أصغيت لها حينا، فكلفتني أعاجيبها مثنى وفرادى، وما أراني أفدت من طاعتها إلا الألم والكد وسوء الحال. فلآخذنها بقانون لا تجوزه، وحد لا تعوده، ولأملكنّها بعد أن ملكتني، ولأسيطرنّ عليها بعد أن سيطرت علي، ولأوقرنّ على العقل حظه من القوة والسلطان».[1]

نلمس في هذا القول فلسفة أبي العلاء المبنية على محاورة النفس والمقارنة بين سلبيات الحياة وإيجابياتها، ليخلص إلى أن السلبيات غلبت الايجابيات، وقد عمد إلى تحكيم العقل فطاعة الدنيا أورثته العناء والألم، وراحة البال في ترك الدنيا، لذلك حبب إلى نفسه العزلة، فكان بيته سجنا له وفقدان البصر منعه من مخالطة الناس، بسبب ما سمعه منهم وأثر في نفسيته، كما أنه رأى في الجسد سجنا تحبس فيه الروح، وقد تنقاد له، فكانت الحياة برمتها بالنسبة إليه سجنا لا يمكن مفارقته إلا بالموت.

ويقول بلزومياته:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي ناظـري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث[2]

هكذا صوّر لنا المعري نفسيته المضطربة في هذا الخطاب الذي تضمنت دلالته إظهار حالة النفس، والشدة التي أوقعها عليها، والزهد المفروض لها، قد صيرها رافضة لكل منافذ الحياة، وأخلق هواها، وأدخلها سجناً مالها من دونه منفذ كما يمكننا طرح قراءة أخرى للنص الشعري فلو كان المعري مبصرا لتغير القول، سيخرج للناس ويخاطبهم بما يراه مناسبا، كما أننا نراه يرفض النفس الحبيسة في الجسد، وهذا أمر لا ينكره عاقل، لكن المعري يرفض ليزيد من درجة الحيرة عند المتلقي يقول:

أو كان كل بني آدم يشبهني فبئس ما ولدت في الخلق حواء

أعللت علة قال وهي قديمة أعيا الأطبة كلهم إبراؤهـــا [3]

نرى هنا هذا التشاؤم الكبير الذي حمله إلى رفض هجاء لنفسه، لما به من عمى قد استعصى على الأطباء شفاؤه. كما نلمس هنا حبا للحياة تمثل في تمنيه ايجاد العلاج من طرف الأطباء، كما يؤكد حقيقة مفادها أن الخلق ليسوا كلهم مثله، وهذه نعمة يشكرها تزيد من قبوله للحياة.

هذا الرفض النفسي الذي أحاطه مدة أربعين سنة ونيفاً. ولد له تمردا من نوع خاص شاعر محب للحياة لكنه غير راض على واقعه، محب للتغيير لكن القدرات والامكانيات لا تسمح بذلك، نجد "ألبير كامو" يحدد التمرّد على أنه تجاوز الواقع إلى واقع أفضل من الذي يعيشه « إنّنا نجد نفس فكرة الحدّ في إحساس المتمرد بأنّ الإنسان الآخر يبالغ وأنّه يبسط حقه ويجاوز الحدّ الذي اعتبارا منه يجابهه ويجده حق آخر،

فحركة التمرّد تستند إذن في نفس الوقت إلى رفض قاطع لتعد لا يطاق وإلى يقين مبهم بوجود حق صالح وبصورة أصح إلى اعتقاد المتمرّد أنّ له الحق»[4].

يقول المعري:

أوصيت نفسي عن ود ونصحت لها	**فما أجابت إلى نصحي وإيصـائي**
حيـاة عنـاء ومـوت عنــاء	**فليت بعيد الحمــــام دنـا**
أعــائبــة جســـدي روحــه	**وما زال يخـــدم حتى ونــى**[5]

يبدو الشاعر رافضا لواقع يراه لا يتوافق مع ما يرومه، وتمثل ذلك في خطابه الدال على الاقتصاص من الذات، «فالمريض الذي لا يرجى شفاؤه مثلاً قد يرى خلاصه في الموت، والفاشل الذي يقرّ بالمصائب في نفسه وعائلته أو ماله، قد يرى الحياة عبئاً ثقيلاً لا يحتمل، واليأس من إصلاح نفسه أو أوضاعه أو العالم قد يتجه بالتوبيخ الشديد لنفسه، ويعتبرها مقصرة فيوقع بها القصاص».[6]

ونلمس الصراع النفسي، الذي هو أصلاً اصطدام وصراع ينشأ بين حوافز الإنسان الفطرية الفجة، وافتقاره إلى التهذيب والتطوير والتعديل، وبين مطالب الضمير أو فروض المجتمع تصادم بين نزعات ميول الطبيعة الفطرية واتجاهاتها الموروثة، وبين نزعات وميول مكتسبة تعلمها الإنسان من الخارج، وتشبع بها ضميره، أو بين أحكام وفروض ينادي بها المجتمع بمختلف وتنوع هيئاته وطوائفه.

قد أصبغ الشاعر على خطابه طابعا فلسفيا تلخص في التساؤل عن فائدة الحياة وحقيقتها، وما الجدوى من البقاء فيها، والقارئ يجد هذا غريبا وعجيبا، فالحياة مبنية على المواجهة تحوي الخير والشر والإنسان فيها مجرب لكلا الأمرين، وله العقل والشرع يهتدي بهما وقد أحكم هنا الشاعر عقله ليصل إلى هذه النتيجة فهو «يتعدى ذلك إلى البحث فيما وراء العلم بالظواهر، فينظر في أصول المعرفة ويعيد تعريف العقل ويفحص عن المفاهيم والتصورات ويتقصى أسباب الأشياء ويبحث في تعينات الوجود ويتأول كشوفات العلم»[7]

يقول المعري:

أأخشى عذاب الله والله عادل	**وقد عشت عيش المستضام المعذب**
ومـــــن تخلقه أيام طوال	**فإن شجونه متجددات**[8]
الله أكبر ما اشتريت بضاعـة	**إلا وأدرك سوقها الأكساد**[9]

حورفت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهدا[10]

لو خُلِقت أجسادنا من صبّـارة لقلّ على كر الحوادث صبرها

نوائب ألقت في النفوس جرائحـاً عصى كل آس في البرية صبرها[11]

وقد جاء خطاب الشاعر دالا على خبرته وتجاربه في الحياة، فقد مارس النصيحة لنفسه، كما أنه يقر بحقيقة إنسانية أن الله يغفر الذنوب والفرد بطبيعته يخطئ، وهذا إشارة إلى حب الحياة والفرد بالخطأ يدرك الصواب، ومن جهة أخرى نلمس رفضه للحياة، وإحباطه الشديد، المتمثل في اصطدام حياته بمعوقات وحواجز منعته من تحقيق أهدافه، فكل أمر أراده كان مصيره الفشل، فقد واجهته عقبات حالت دون إدراك غايته وإشباع حاجته. «وما من دافع ينشط إلا وتصحبه درجة من الحصر الطبيعية العادية، التي لولاها لما اندفع الكائن في محاولة إشباع الدافع. وما إن تبدأ معوقات الإشباع حتى تبدأ درجة الحصر في الإرتفاع الذي يخرجها قليلاً عن الدرجة الطبيعية، وكلما زادت المعوقات كلما ازداد الحصر شدة، حتى إذا طال أمد الحرمان وامتنع زمناً طويلاً أو لأمد يفوق طاقة الفرد الاحتمالية، بلغ الحصر درجة عالية هي درجة الاضطراب والمرض»[12].

إن هذه النفس التي يظهر عليها التشاؤم، هي في جانب آخر محبة للحياة مقبلة عليها، هذا ما نراه ماثلا في قوله:

أتمشي القوافي تحت غير لوائنا ونحن على قُوالِها أمراء

وأي عظيم راب أهل بلادنا فإنا على تغييره قدراء

وما سلبتنا العزَّ قط قبيلة ولا بات منا فيهم أسراء[13]

نلمس هذا الفخر الذي يتعالى به المعري، الذي يكشف لنا عن ذات أخرى تخالف الأولى، إنه رجل قد خبر الحياة بتجاربه الكثيرة، إنه يفخر بقيادة قومه للشعر وقد يقصد نفسه فهو شاعر ولسان قبيلته، كما ينسب لهم القوة والقدرة على التغيير، هي الذات حين ترضى عن أفعالها فتنطلق مقبلة على الحياة، التي تراها تتشكل من مجموعة من القيم التي ترفع الذات وتزيد من مقامها وسط أقرانها، مشيدة بالدعوة إلى مكارم الأخلاق.

ثم يتحول بنا الشاعر إلى صورة أخرى من صور شعره التي تدور حول نتيجة خوضه مغامرة الشهرة ومصاحبة الهناء والرخاء، ليجد نفسه أمام هموم ومصاعب،

فيتهم نفسه بالغرور، وهي في الواقع محاورة للحياة فهي لا تستقيم على رخاء دائم ولا على شدة دائمة، يقول المعري:

ورميت بالهمم الطوال وغالـها كر الخطوب فوضعت بقصار
لقـد غـرني أمل في الحياة كأني بما يفعل الدهر غـر
نصحتك لا تعترف يا أخـي بي فأنا الرجل الساقط
ولو كنت ملقى بظهر الطريق لم يلتقط مثلي اللاقط
وأن التجمل قد ضاق بـي فكيف أنافس أهل الجمال
أشهد أني رجـل ناقص لا أدعي الفضل ولا أنتحل [14]

يقر الشاعر بتجربته وبولوجه معارك الحياة، فقد سافر بغداد طالبا العلم والشهرة، كما حاور العلماء والشعراء، فقد نال قسطا وافرا من النجاح في الكثير منها، كما فشل في مواضع أخرى وهو يدرك أن الحياة تؤخذ غلابا، لكنه لا يريد أن يصارح نفسه.

تتجلى في خطاباته نزاعات جعلته ينكر ذاته ويقلل من قدرته على مواجهة الواقع، فقد أقرّ بفشله وعدم أهليته لبلوغ مراميه، فقد شبه نفسه بالشيء المرمى على قارعة الطريق فإنه لا يستحق حتى الالتقاط، لأنه شيء غير مرغوب فيه، فهو يعمل على إشعار الناس وإقناعهم بعدم أهليته للمكانة التي يشغلها، وبعدم استحقاقه للبقاء على قيد الحياة، ويعمل على هدم حاضره بنفسه، وبتصرفات قسرية لا يقوى على مقاومتها؛ وهكذا يدفن ذاته وهي حية.

3.الصراع الاجتماعي:

يقول أبو العلاء المعري: "مالي وللناس؟ لقد بلوت أخلاقهم فلم ألق إلا شراً، واختبرت طباعهم فلم أجد إلا نكراً. فلتضربن بيني وبينهم الحجب، وتسدلن بيني وبينهم الأستار. لقـد سمعت منهم فما نطقوا إلا محالاً؛ ولقد تحدثت إليهم قبلي الحكماء وأولو النهي، فما أثروا إلا طاعة الأهواء، وما استجابوا إلا لدعاء الشهوات؛ فلتصمن عن حديثهم أذني، وليُعقدنّ عن تحديثهم لساني، وليمحينّ من قلوبهم شخصي، وليحسبنّي بعد اليوم من أهل القبور "[15]

إن أبا العلاء قد عاش بين الناس زمنا سمح له بتكوين رصيد معرفي لا بأس به، مكنه من اكتشاف نيات الناس ومعرفة ما يجول في نفوسهم، فقد درس أخلاقهم رآها

شرا، وتأمل طباعهم وجدها خداعا ومكرا، ويستعمل الشاعر أسلوب إقامة الحجة مستندا إلى أهل النهى والحكماء، فقد حاولوا مع هؤلاء البشر ولم يفلحوا، والخير كل الخير في مجانبتهم والابتعاد عنهم، بل حبب إلى نفسه الموت حتى لا يصاحب أحدا منهم ولا تكون له أي علاقة بهم. يقول في لزومياته:

وزهدني في الخلق معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هباء
فلست لهم وإن قربوا أليفا كما لم تأتلف ذالي وظاء
فأف لعصريهم نهار وحندس وجنسي منهم رجال ونساء
بني آدم بئس المعاشر أنتم وما فيكم وافٍ لمقت ولا حب[16]

يوجه الشاعر خطابه الذي يحمل دلالات الرفض الاجتماعي، وذلك لفساد المجتمع، ويأسه من إصلاحه بشكل لا يحتمل، فهو لم يعد ير في الكون أشياء طيبة، ويرى الشر والقهر في كل مكان. وهناك أيضاً اليأس الذي يصيب المرء من إصلاح أمته التي يراها تتدهور وتنهزم دون أن يتمكن من القيام بشيء لإيقاف مسيرة التدهور أو عكسها، أو حتى اليأس من إصلاح النفس البشرية، "التي قد يرى الشخص الشر فيها مسيطراً على الخير، ويرى أن الشخصية البشرية بجبلتها وفطرتها فاسدة، ومن العبث إصلاحها؛ ومشاعر اليأس هذه كثيراً ما أصابت المتشائمين من المفكرين عبر التاريخ في الفكر الإنساني وأدت ببعضهم إلى الانطواء والسوداوية وحتى الانتحار" [17].يقول المعري:

عصا في يد الأعمى يروم بها الهدى أبر من كل خدنٍ وصاحب
فأوسع بني حواء هجراً فإنهم يسيرون في النهج من الغدر لا حب
والوحوش في الفلوات أجمل عشرة للمرء من أهلية في الأمصار
وخير بلاد الله ما كان خالياً من الإنس فاسكن في القفار البسابس[18]

يظهر الانهيار النفسي والرفض الاجتماعي عند المعري في ابتعاده عن الناس ومؤانسته للعصى، فهي أبرّ من صاحب أو رفيق خائن، وقد نمى عنده هذا الإحساس بفقدان عزيز تمثل في البصر، وكأنه فقد النشاط والقدرة على الحب واحترام الذات، وهذا ما جعله يرفض المجتمع لغدره، ويأنس بالوحدة جاعلاً إياها خير بلاد الله، وذلك بخلوها من بني حواء. «يمتاز شعر التمرّد الاجتماعي عن غيره من شعر التمردات الأخرى بكونه شعرا عاملا في نقض بناء التقاليد التي تحكم حركة الاجتماع البشري التمرد الاجتماعي إذن تعبير عن ضيق الفنان بفداحة التفاوت الطبقي ورفضه لغلظ القيم

المتخلفة ومعارضته للجهود في كل شيء وثورته في وجه والسلب، وقد برزت هذه الظواهر الأساسية كلها في الشعر العربي المعاصر»[19]

ونلمس هذا الشعور بالغبن والظلم من طرف العالم والمجتمع ككل، وبدلاً من توجيه الانتقام إلى الجهة الخارجية الظالمة، يتوجه الشخص بالانتقام من الداخل محاولاً بذلك إيقاع الانتقام بمن ظلمه بطريقة غير مباشرة ويقرر العزلة، وكأن السبب في الأذى والعزلة هو المجتمع، فتكون لديه ما يسمى بالعدوانية. يقول المعري:

وارحمتاه لأنـــام كلــه ... فإنهم من هوى الحياة أتوا
أفّ هم ما أقل فطنتـــهم ... لذوا أكيلاً و إنما سئتوا
غنوا بالجهل في مخالفهم ... ولو دروا لتحملوا نأتوا

قد جاء الخطاب هنا موجها إلى الأنام، حاوياً بين دلالاته هجاء لأخلاقهم وسيرتهم في الحياة؛ وذلك بعدم استخدامهم العقل، واتباع الهوى. فاعتنوا بمحافلهم لهوا وعبثاً تاركين شؤون دينهم، فكانت حياتهم صورة من فوضى اجتماعية، وكمٌ من هرجلة اقتصادية، وكمٌ من أحكام تعسفية، واتجاهات استبدادية، ونزعات تعصبية، وإرهابات عنصرية، واضطهادات سياسية، وتحديدات عسكرية، وغيرها من الأوضاع البيئية والخارجية التي ألّفت مصادر الإحباط، والنفور الاجتماعي للشاعر. يقول المعري:

والقوم شر فلا يسرك إن بسطوا أسير ... لك الوجوه ولا يحزنك إن عبسوا
أمر بدا ثم أخفوا شـأنه قـــــدر ... كالنار ماتت ولم ينشر لها قبس
إذا حضرت الجماعة أوحشـــــت ... فما وحدة إلا صحيفة إيناس
طاهرة مثلي في التبـــاعد عنكـم ... وقربكم يجن همومي وأدناس

نرى عودة المعري إلى أعماق نفسه، وإخراجه ما يشعر به نحو المجتمع، وإحساسه بغياب الأمن الذي يعد من أقوى الدوافع التي تحمل الفرد على اندماجه وسط الجماعة؛ إن لم يكن أول وأهم دافع حيوي بالنسبة للهدوء النفسي، والاتزان الشخصي، كما جاء خطابه دالا على حب الاستقلال الذاتي، وما يتضمنه من رغبة قوية وملحة في التحرر من كل ضغط خارجي يسلب الفرد فرديته، ويمنع عليه حرية التفكير والتصرف، والشعور بوصفه كائنا آدميا، مستقل بذاته، له حرية الاختيار؛ ومخيراً غير مسير، وأن عقله هو الذي يجب أن يحكم، ويميز ويفصل، قبل أن يخضع لضغط الغير وقيوده وأحكامه.

وهذا دافع إذا لم تشبع غاياته، تجرد صاحبه من معاني الثقة الذاتية والطمأنينة النفسية وشعور الفردية. «فالشعر خرق للنظام المألوف للّغة وإعادة كتابتها ضمن منهجية متميزة تخص مردودا نفسيا بوقائع حالية عند المتلقي وتترك لديه انفعالا يشده إلى معاودة القراءة والتفاعل مع النص حيث لا يجد مناصا من التفكير بالوحدة المحدثة التي يراها على خلاف ما كان يراه في واقع اللّغة المباشرة »[20]

4. الصراع الأخلاقي:

إن حياة أبي العلاء المعري كانت مبنية على قاعدة خلقية، ترفعه إلى أسمى درجات العلماء والشعراء، فقد استمسك بالعروة الوثقى وحرم على نفسه حتى ما هو حلال، واقتنع بزهيد العيش وامتنع عن لذات الحياة. وذلك لأمر من غريزته الذي أطلق عليها الغريزة الوحشية، التي تتملكها الفطرة الإنسانية؛ ولرفعة أخلاقه كان رافضاً مدح الخلفاء والأمراء وأصحاب الممالك مهما كانت مكانتهم. لقد كان يرى في التكسب مذلة السؤال وجور النفس وتصوّر أمرين في التكسب بالشعر:

أولاً بشاعة الكذب، وقبح أثره في نفس الكاتب ونفس المكذوب عليهم، فإن الكاذب إذا اطمأن إلى هذا الخلق اعتاد هذا السلوك المحظور، ولم تكن للحياة في نفسه قيمة، يستبيح كل شيء للحصول على ما يريد، وكذلك المكذوب عليه إذا سمع ما يضاع في مدحه من طوال القصائد، غره ذلك وأغراه بما هو فيه من ظلم وجور وقتل في نفسه. ما عسى أن يكون لها من حس أو شعور وخُيّل إليه نقيصته فضيلة، ومذمته محمدة، ومنكراً معروفاً؛ فكانت حياته شراً على نفسه، وعلى الناس، وحتى من يسمعون هذا المدح ينجذبون له ويرون الظلم خيراً، مخدوعين به حتى يبلغ بهم اليأس أشده. يقول الشاعر في لزومياته:

إن مازت الناس أخلاق يعاش بها ... فإنهم عند سوء الطبع أسواء

فقد فُقِد الصدق ومـــات الهدى ... واستحسن الغدر وقل الوفاء[21]

ويقول:

ما فيهم بر ولا نـــاسك ... ولا إلى نفع له يجذب

أفضـــل من أفضلهم صخرة ... لا تظلم الناس ولا تكذب[22]

وقد جاء خطابه الشعري مشبعا بدلالات الرفض لأخلاق قومه، وتضمن معاني الفساد الأخلاقي، وسوء الطبع الذي كان يراه مغروساً بنفوسهم، بفقد للصدق وموت

للهدى، ولا حياة بعد ذلك اليوم تذكر إلا من غدر منتشر، وقلة لوفاء من ناسك متعبد، في عبادته إلا رياء، وسبيل لحاجة مادية، فالصخرة بجمودها تفضلهم صدقاً ووفاءً فلا تكذب ولا تظلم.

يظهر من خلال هذا الخطاب أن الشاعر قد مر بتجارب أكسبته علما وافرا وفهما للحقيقة التي يرومها كل مفكر هذه الحقيقة التي تبنى على المنطق المصاحب للتحرر الفكري الذي « يبين أن تاريخ الحقيقة ليس تاريخا لتقدم العقل على الوهم والمعرفة على الجهل، بقدر ما هو تاريخ لتجارب خطابية نظرية، او سلوكية عملية، تقوم على الترجيح والمفاضلة والاصطفاء، وتمارس آلياتها في الحجب والإقصاء والتهميش»[23]

وقد تجلى الأمر الثاني لرفضه المدح في:

أنه مال حرام قد يكون من حق ضعيف أو يتيم وهو يأخذه غصباً من مادحه، ولا يعطيه المادح إلا كرها، وهو يعلن عن مادحه ناقماً عليه، ولهذا زهد فيه أبو العلاء على الرغم من حاجته الماسة إليه.

نلمس هنا حكمة أبي العلاء وإحساسه بالآخرين ومعرفته بأحوال ومشاعر غيره، كيف لا وهو واحد منهم يرى أموال الملوك التي هي حق للمسكين والمحتاج، تذهب هباء لأقوال الشعراء؛ قولهم زور وكذب، خداع ومكر، نقمته تفوق نعمته، فبئس لها من أخلاق تسكن نفوسها هي كلها شر وظلال.

يقول الشاعر:

أراهم يضحكون إلي غشـــاً ــــــ وتغشاني المشاقص [24] والجِظّاء [25]

أبيننا سوى غش الصدور وإنما ــــــ ينال ثواب الله أسلمنا قلبـــاً [26]

ألم تر أن الخير يلبسه الحجى ــــــ طريفاً وإن الشر في الطبع متلد [27]

ومن ذمام الأخلاق التي رفضها الشاعر، الضحك الذي كان غشاً وذلك حال الأعمى، لا يرى أفعال غيره إلا سامعاً لأقوالهم، وإحساسه العميق بحاجته الدائمة والماسة إليهم، أشعره بغشهم الذي تمثل في غشاوته بالمشاقص التي تنهال عليه، وتحمله الموت. وهذا الشعور بالنقص حمله على العدوانية والعنف الاجتماعي، وأن الشر طبع متلد لا مفر منه، ونلمس هنا هذا التناقض في الخطاب الدلالي بين دلالة الوفاء والصفاء بالنفس، وعلى أنها مجبولة على الشر والغدر ولا مناص لتغييرها. يقول أبو العلاء:

زمان يخاطب أبنـــــاؤه ــــــ جهاراً وقد جهلوا ما عنى

تفرقوا كي يقل شرهـــــم فإنما الناس كلهم وسخ

قد نُسخ الشرع في عصورهم فليتهم مثل شرعهم نسخوا

قد تجلت هنا هذه الثورة العارمة، والهيجان الانفعالي، والهجاء الاجتماعي على هؤلاء الجاهلين بما حكم الزمان وأنه بالغد دائر عليهم بما هم به مفسدون. تقلد هنا أبو العلاء كرسي الخطيب الحكيم والناصح الرشيد، آمراً إياهم بالتفرقة التي تعدم شرهم وتمحي وسخهم المسبوغ على أنفسهم الحي بصدورهم، فلا سبيل لهم الآن سوى الغياب والفناء، كما غاب شرعهم، واندثر باندثار قيمه وتعاليمه، تظهر هنا حكمة المعري وتتجلى تجربته الأدبية التي تبين أن الأدب « فعل حركة مستمرة تبدأ من الحياة نفسها فتفعل في الأديب فيكون تناجا أدبيا هو المكتوب، ويكون تلقيا من الآخرين لهذا المكتوب فيكون انفعالا ويكون فعلا مسرحهما الذات والحياة، ومع الفعل يتحول المكتوب إلى المعيوش فيمارس وجوده في الحياة، ويؤثر من خلال هذا الوجود فيها»[28] ثم نجده يخمد ثورته باقتناعه بفساد، لا جدوى من محاربته، وذمامة أخلاق لا سبيل لإصلاحها فيعمد قائلاً:

ونحن في عالم صيغت أوائله على الفساد فغيّ قولنا فســـدوا

تنفقوا بالخنى والجهل إذا أنفقوا عند السفهاء وهم عند الحجى كسد[29]

فنراه قد حمل رفضه وتشاؤمه إلى الأوائل، وفسادهم الذي نمى واجتاز إلى آخرهم، من نفاق وخيانة، معدومين من الحكمة العقلية، ما لهم ضمير ولا قلب خاشع هادئ.

قد تميز أبا العلاء بعاطفة وعقل ثاقب سمح بأن يميز الحق من الباطل، وبأن يعمل على الإصلاح بتشخيص المرض والهدي إلى شفائه، فقد حمل هم الإنسانية ويشاطره في هذا العلامة البشير الإبراهيمي قائلا: « عجيب لهذه الإنسانية ما كفاها من مصائب الدهر تقاطع أبنائها وتدابرهم، ونصب الحبائل وبث المكائد لبعضهم بعضا، ما كفاها من مصائب الدهر إن يكون في أبنائها قوي يستعبد ضعيفا، وشريف يستخدم مشروفا، ما كفاها أن تنقلب الحقائق على أبنائها المارقين العاقين فيركبون مطايا الخير للشر، ويستعملون سلاح النفع للضر، ويوسلون بالدين لجمع الدنيا»[30] والناس من حوله لاهون بلهوهم، منغمسون في دنياهم، وهو عنها منعزل غير داخل إليها إلا ليساعدهم، وكأنه عالة عليهم، لا صلاح له إلا بهم، وأنه تابع شاء أم أبى، فهذا الشعور أعجزه وحمله على الرقي بنفسه، يجعل الآخرين عنه صغاراً محرومين من العقل ونوره، وكأنهم هم العميان وهو المبصر.

4. خاتمة:

الشعر ترجمان للذات وهو متتبع لما يجيش داخلها من صراعات، لذا وجدنا شعر أبي العلاء يتأرجح بين التشاؤم والتفاؤل، واصفا بذلك تحولات الذات.

المجتمع هو الموجه والأكثر تأثيرا في طبيعة الذات، والفرد يزداد قوة واندفاعا بصلاح المجتمع، وإن فسد المجتمع فهذا يؤثر على سلوكه.

إن صراع الذات في شعر أبي العلاء المعري هو نتيجة تجاربه في الحياة، والتي خبرها عبر مراحل حياته المختلفة، بداية من مولده ثم خلال رحلته إلى بغداد، ضف إلى ذلك ما رآه وعايشه من متغيرات وتناقضات في مجتمعه، كل هذا رسم له منهجا فكريا مشى على خطاه.

يعتبر صراع الذات أمرا طبيعيا في نفسية الفرد، فهو دائم التقلب بين الرضا والسخط، وبين القبول والرفض، فالنفس بفطرتها متقلبة وهذا بعض ما خلقه الله تعالى فيها.

يتكون الصراع النفسي من منزلتين مهمتين تمثلت الأولى في قناعات أبي العلاء المعري، وما كان يؤمن به من عقائد وأفكار، وما كان خارج ذاته من مظاهر المجتمع المختلفة، هذا ما نتج منه تصادم معرفي حاول الشاعر أن يترجمه في كتاباته الأدبية، وأن يحاور القارئ ويكشف له عن حقيقة ما يحس به.

وقد تبع الصراع النفسي صراع أخلاقي واجتماعي، حاول فيهما الشاعر شرح نظريته في الحياة، مضمنا إياها بعدا إصلاحيا يشمل جميع ميادين الحياة، كما أننا نعرف مكانة الشاعر والأديب في العصر العباسي، فقد كان يستمع له السلطان والعالم والفقيه، فقد خط الشاعر لنفسه مكانة فرض من خلالها احترام الناس له، والتاريخ يشهد لمكانة أبي العلاء وسط قومه، ولازالت هذه المكانة ماثلة بين الدارسين والنقاد.

هذا ما حاولنا نهجه في هذا البحث، الذي تناول شخصية أدبية إبان العصر العباسي، التي أظهرت لنا قدرات فائقة بصفته عالما وفقيها لغويا، وقدرته العجيبة على الحفظ، وبصيرته النافذة، حيث استطاع أن يصف مشاهدا يعجز عنها ذوي العيون المبصرة، ورأى الحياة بمنظار ناقد لها ورافض لملاذاتها، أحب العزلة، حيث تفرغ فيها للتأمل والتدبر، محاولا الوصول إلى الحقائق التي وجد الناس في بعد عنها، وعاملا على

تقريب الحق من العامة، وإرشادهم إلى ما يخدم مصالحهم، فكان بذلك ناقدا اجتماعيا وأديبا لبيبا.

مراجع البحث وإحالاته:

1- طه حسين، كتاب أبو العلاء المعري ،دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1974، ص170.

2 - أبو العلاء المعري، اللزوميات، ، دار صادر، بيروت، د. ط، 1384 هـ / 1961 م، ج 1، ص188.

3 - نفس المصدر، ص48.

4- ألبير كامو، الإنسان المتمرد، تر: نهاد ورضا، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1983، ص 18.

5 أبو العلاء المعري، اللزوميات، ج 1، ص67، 81.

6 - محمد بدوي، التدمير الذاتي وعلم النفس، مجلة الموسوعة النفسية، العدد 13، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت 1992، ص 53.

7- علي حرب، أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، مقاربات نقدية وسجالية، دار الطليعة، بيروت، ط.1، 1994، ص 40.

8- اللزوميات، ص 156.

9- نفسه، ص 250.

10- نفسه، ص 258.

11- نفسه، ج2، ص 744.

12 عزيز فريد، الأمراض النفسية العصابية، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964، ص57.

13 - أبو العلاء المعري، سقط الزند، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1957، ص 189.

14- أبو العلاء المعري، اللزوميات، ج2، ص 451.

15- طه حسين، أبو العلاء المعري، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1974، ص170.

16- أبو العلاء المعري، اللزوميات ،ج 1 ،ص48، 52، 63، 140.

17- محمد بدوي، التدمير الذاتي وعلم النفس، مجلة الموسوعة النفسية، العدد 13، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت 1992، ص 55.

18- أبو العلاء المعري، اللزوميات، ج 1، ص142، 212، 580 ،ج 2، ص43.

19 - محمد أحمد العذب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، قسم اللغة والنقد، كلية العربية 1976، ص 285.

20- خليل الحاوي، الصورة الشعرية،، دار الكتب الوطنية للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2010، ص20

21- أبو العلاء المعري، اللزوميات ص 40.

22- المصدر نفسه، ص 86.

23- علي حرب، أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، ص 98.

24 المشاقص = النصل الكبيرة

25 الحظاء = السهم الصغيرة

26 أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج 1، ص114.

27 المصدر نفسه ص309.

28- وجيه فانوس، دراسات في حركية الفكر الأدبي، دار الفكر اللباني، بيروت، ط.1، 1991، ص. و.

29- أبو العلاء المعري، اللزوميات ص 235.

30- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، جمع وتقديم، أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1997،ص 62.

قائمة مراجع البحث:

1- أبو العلاء المعري، اللزوميات، ، دار صادر، بيروت، د. ط، 1384 هـ / 1961 م.

2- ألبير كامو، الإنسان المتمرد، تر: نهاد ورضا، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1983.

3- خليل الحاوي، الصورة الشعرية، دار الكتب الوطنية للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2010.

4- طه حسين، كتاب أبو العلاء المعري ،دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1974.

5- عزيز فريد، الأمراض النفسية العصابية، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964.

6- علي حرب، أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، مقاربات نقدية وسجالية، دار الطليعة، بيروت، ط.1، 1994.

7- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، جمع وتقديم، أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1997،

8- محمد بدوي، التدمير الذاتي وعلم النفس، مجلة الموسوعة النفسية، العدد 13، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت 1992 .

9- وجيه فانوس، دراسات في حركية الفكر الأدبي، دار الفكر اللباني، بيروت، ط.1، 1991.

الأطروحات الجامعية:

محمد أحمد العذب، ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، قسم اللغة والنقد، كلية العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، رسالة دكتوراه، 1976.